الفن الحديث وأزمة التذوق

بقلم عبد العزيز علوان

عالم معقول تحلق من حوله نفحة غرابة ، تعمق التفكير الفلسفي المتسائل وتغور الى كهف الجمال في داخلنا فتنثر فيه رائحة اللون وعبق الخط وتوزع التفل والحركة على شكل لوحات نحار في فهمها وتماثيل نقبلها ونرفضها ونتهم صاحبها بالجنون والاسفاف حينا وبالعبقرية والتفنن الرائع حينا آخر .

قدم رواق الفن الحديث هذا العالم المعقول في معرضه الاول بين ٢٠ — ٣٠ من تشرين الاول الماضي على شكل لوحات وتماثيل لفنانين شابين هما « جوليو بالوتسي » الايطالي و « محمود دعدوش » العربي ، وطرح مشاكل فنية كثيرة جديرة بالمناقشة . وقد يكون لها من الاهمية مالهذا الرواق من اهمية في تاريخ الفن في الاقليم الشمالي باعتباره اول رواق في الاقليم واول مكان حر للعرض يقدم الفنان به انتاجه بعيدا عن الشكليات الرسمية الباردة وبعيدا عن المتحف المنعزل الذي كان اجود مكان للعرض . مع ان المتحف بعيد عن الشوارع الرئيسية وقاعاته معدودة واشبه بمعالق الاطفال الصغار وتفتقد لكثير من وسائل العرض التي تؤهلها لتكون قاعات عرض فنية ، كتوزيع النور اللازم لكل لوحة ، والمقاعد المناسبة لمشاهدة المعروضات ، والديكورات اللازمة والموسيقى المطلوبة لخلق الجو المناسب . المهم انه قد افتتح هذا الرواق في الشارع الرئيسي وفتح باب العرض الحر على مصراعيه بديكوراته الفنية التي قام بعملها الفنانان المختصان بالديكور من روما . هذه الديكورات الخداعة المبنية على شكل طيور خضر انيقة وجدران مسحورة طول الطريق تنفث سحرا اشبه باشكال انسانية تحرر فينا همسا اشبه بنداء الجنس يقود الى المعرض .

وضع هذا الرواق كثيرا من الاسئلة على الشفاه وأثار ضجة كبيرة شملت كل الصحف السورية حول معروضاته وكتبت حوله تعليقات نثرية وشعرية واقيمت الكثير من الندوات والمناقشات لفهم هذه المعروضات وتقييمها . ولا اريد هنا أن اكون امتدادا لهذه الضجة وانما بودي ان اطرح مشكلتين اثيرتا من بين كثير من المشاكل الفنية التي نبه اليها هذا المعرض ، بالاضافة الى اعطاء لمحة عابرة عن الفنانين ومعروضاتهما .

المشكلة الاولى هي ازمة التعبير في الفن الحديث ، وقيمة هذا الفن الحديث بالنسبة للفن الكلاسي ، هل هو مارد عملاق انفلت من قمقم القيود واعتلى عرش التفكير الحر

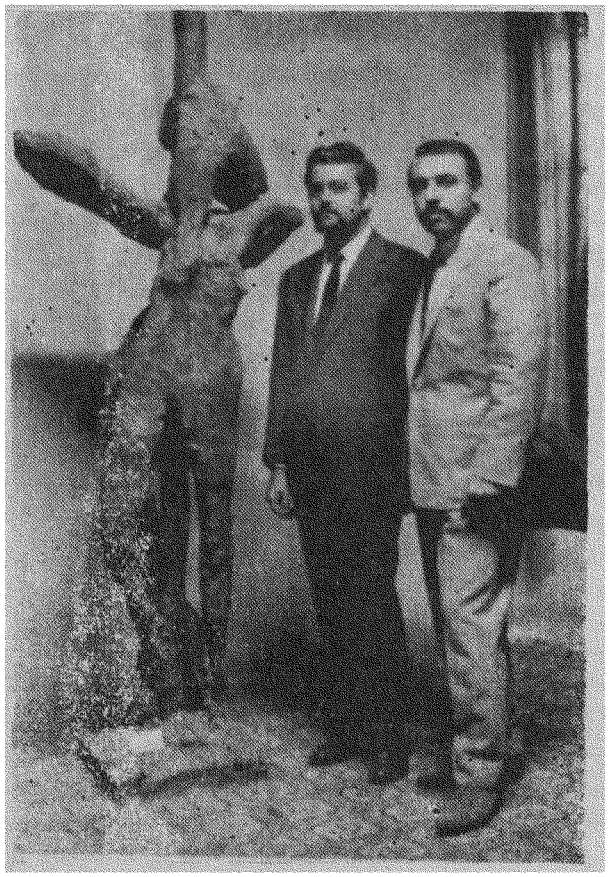

تمثال النصر وبجانبه الفنانان محمود دعدوش

وتبنى الانسان الفرد وراح يعبر عن اعماقه بهذه المدارس الكثيرة التي طلعت علينا في المئة سنة الاخيرة او ان الفن الحديث طفل مقعد مايزال قابعا في حضن الفن الكلاسي يخبيء وجهه بين يديه ؟ هل هو امتداد وهرب في نفس الوقت من الفن الكلاسي الصحيح ؟

هذه هي المشكلة الاولى في خطوطها الاولية وارى انها مشكلة يتوقف على حلها منح الفنان المنتج ثقة وايمانا بنفسه وقيمة مايعمل . فالفنان المنتج ليس فقط في الاقليم الشمالي او بقية البلاد العربية وانما في كل مكان من العالم الواسع مايزال يعاني ازمة شكل التعبير عن نفسه بجره الى الكلاسيك خلوده وعظمته ويبعده الى الحديث انه شكل يغور الى ذاته هو فينضح تصوراته

العميقة ويخلد اللحظات الانسانية في ترددها وجمال قباحتها وعفويتها . واكثر من هذا فهذه المشكلة قد تجرنا الى شكل الصورة المرتبطة بالفكر هل هي صورة منظور عادي في حدوده الطبيعية او هي رموز صورة منظور موهوم ، واقعي في حدود الخط واللون المتخيلين على سطح اللوحة . ثم هل طريقة التعبير عن الفن المجرد والفن الواقعي هما شكلان متلاحقان من الناحية الزمنية او انهما شكلان منفصلان من اشكال التعبير لدى الفكر الحر. وما معنى ان نجد لدى القبائل الافريقية البدائية فنا مجردا ؟؟

والمشكلة الثانية هي مشكلة ذوق جماهيرنا ومتطلباتها وأزمة التذوق في الصورة عامة والفن المجرد بصورة خاصة . فقد كنا نرى الاف العيون المحدقة بالمعروضات الفنية ببلاهة . وتدل ملاحظات المتفرجين في سجل المعرض على جهل فاضح بالثقافة الفنية ـ هذه المشكلة دعت بعض المتشائمين الى المطالبة بايقاف المعارض الحديثة للعمل اولا على تثقيف الجماهير بالمعارض الكلاسية . وانا وان كنت قانعا معهم ان المعارض الكلاسية منتجة الا انني ارى انها وحدها لاتحل المشكلة لان جماهيرنا لاتجيد تذوق كلا النوعين وتاريخ فن الرسم والنحت جد قريب في بلدنا .

هاتان المشكلتان يطلعان علينا في كل معرض فني يقام في الاقاليم والاسهام في حلهما يعني فتح الاف العيون العمياء المحرومة من لذة الابصار الفني وكشف دنيا من

كاباريه رقم (1) لجوليو بالوتسي

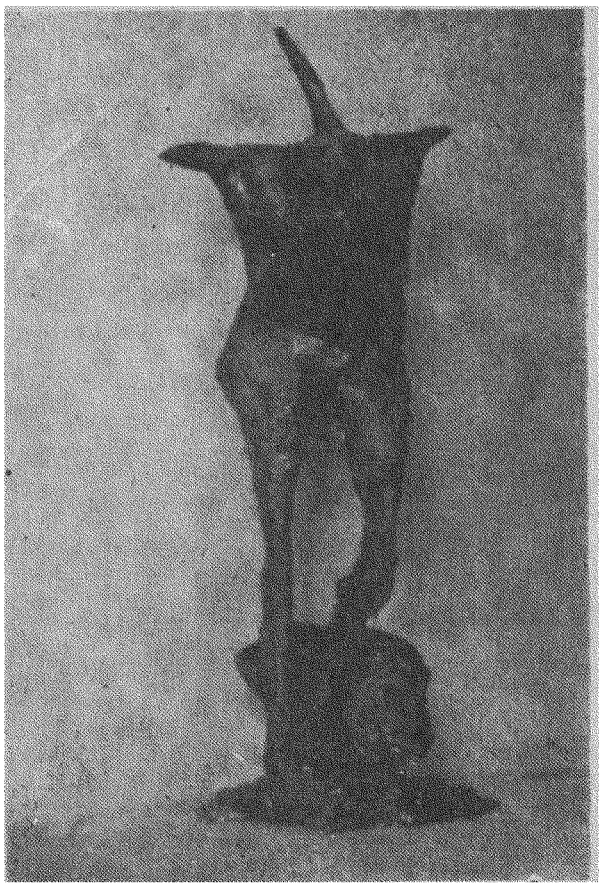

تمثال رأس الملك لجوليو بالوتسي

الالوان وعالم من الخطوط والكتل والحركات التي تفجر الجمال في اعماقنا ، اداي كبير انيسهم اكثر المفكرين في اعطاء ارائهم وان يتحمل المثقف العربي مسؤولياته في بناء صرح الحضارة .

ولاعد الان الى الفنانين العارضين لانافس اعمالهما وسأحاول جهدي الا اقدم احكاما لان ربيع انتاجهما مايزال في آذاره ، وهذا هو اول معرض لهما في دمشق بعد ان اشتركا بعدد من المعارض في اوروبا اثناء دراستهما هناك . وقد قدم « جوليو بالوتسي » ثلاثة اشكال من اللوحات . الاول تبنيه خطوط نزقة وانسجام لوني قائم على مشتقات الاخضر « كاباريه ـ كاباريه ـ وتشكيل . آ.ب » او مشتقات الازرق مثل « دمشق في الليل ـ امراة انكاجيه » وحاول الفنان في هذه اللوحات ان يعبر عن رايه في الناس ، ففي كاباريه رقم واحد نرى الراقصة تقف في الوسط على شكل هيكل عظمي لمسيح مصلوب وتتجه اليها انوف مثلثية تريد لو تنهشها وتمزقها ، وفي لوحات هذا النوع اقتراب كبير من عين « دومي » الباحثة عن اللذة الخالصة في تعبير اللون .

والنوع الثاني يشمل لوحات مبنية بناء تكعيبيا على

خطوط مستقيمة ومساحات ملونة باهتة اشبه بالحقيقة العلمية التي تدعي معرفة كل شيء ولا تدرك شيئا . ففي « طريق المستقبل » حاول الفنان في رسم متاهة برتقالية بين مساحات زرقاء جارحة ان يعطينا تنبؤا عن مصير الانسان . ويدخل ضمن هذه الزمرة عدد من اللوحات التي قام فيها الرسام بدور فيلسوف طبيعي « خليقة الارض وخلق الانسان » الا انه كان يضيع احيانا ويقصر عن تعميق التجربة الانسانية ليسند الفرضية الفلسفية وتبقى اللوحة مجرد لعب وبهوانية خطوط والوان .

اما النوع الثالث فهو تطوير للنوع الاول فقد طور الفنان الانسان الى خطوط سطحية واقعة فوق طبقات كثيرة من الالوان الزيتية وقدم الشكل الانساني بأقل مايمكن من الخطوط وابتعد كل البعد عن تصوير ملامح فرد معين . واحسن مثل على هذا النوع « العائلة البدائية » وهذا النوع هو الطريق الجديد « لجوليو بالوتسي » بعد ان شعر بخيبة في البحث عن اصول علمية تسند التفكير والمعتقدات . ان هذا النوع من الرسم قريب من غموض الانسان ومن فلسفة الحياة .

وقدم « بالوتسي » خمسة اعمال في ميدان النحت ، ومهما قيل في قيمة بعضها وقدرته الا انها تظل اقل امكانية من لوحاته واجملها تمثال راس الملك وحبلى .

والغريب في اعمال « جوليو » انه لم يتأثر بالالوان الشرقية وما يزال يستعمل الالوان الهادئة الغريبة مع انه رسم كل لوحاته في صيف دمشق ويعلل الفنان السبب فيقول انه قد تأثر بالشخصية العربية والنفسية العربية التي كانت تشغله منذ وصوله ونسي اللون واختلاف توزيع النور الجديد وانه مخلص للالوان الحلوة الهادئة التي اولع بها منذ زار اليونان قبل سنوات .

اما صديقه « محمود دعدوش » الذي هام مع التجريد الحر يصب الالوان على اللوحات صبا ثم يحرق هذه الالوان ويقوم بسلسلة من العمليات الكيماوية العجيبة التي قد تؤدي احيانا الى حرق اللوحة او ثقبها ولكن المهم في هذه اللوحات ان تتحول عند الانتهاء الى جزء من الفنان وتخلد لحظة نفسية عارمة الانفعالات واشبه بوثيقة تحكي الكثير والكثير عن صاحبها . ومحمود فنان يفتح عينيه على الوان قاسية فلا نجد عنده غير الاسود والاحمر والاصفر . هذه هي الالوان الوحيدة التي يستعملها هو ، ثم تأتي النار فتحيل الالوان المحدودة العدد الى بقع عجيبة غريبة الالوان . « تدفق ـ ثورة ـ ريم ـ ماري » ويعتمد محمود على الجنس كمنبع خصب لفنه فالعري وصرخة الجسد والخطيئة كلها من مواضيعه الفنية التي يبدع احيانا في تصويرها .

ولقد ثارت ضجة حول الفنان واضطرته وزارة الثقافة والارشاد الى سحب لوحة « خطيئة » من المعرض باعتبار انها تصور تجربة جنسية من قريب وتتحدى ذوق الناس المحافظ الذي ينظر الى الجنس بتخوف وحرمانية . وجرت محمود جراته في الرسم ورغبته في التجديد الى تقديم لوحات اشبه بسكتشات بسيطة تعتمد على لونين فقط ولكنه لم ينس ان يحملها انفعالات نفسية غنية مثل « لوحة عارية ـ آدم وحواء » .

وفي النحت جرب الفنان ان لايعتمد على الفراغات وتوازن التمثال فقط وانما حاول ان يقدم فكرة الغفران بطريقة تعبيرية « تمثال غفران » كما حاول ان يحاكي بعض الاعمال المشهورة في تاريخ النحت مثل تمثال « نصر ساموتريس » وان يستفيد من الحركة التي بنى عليها التمثال القديم ولكن على ان يبقى محافظا على طريقته الخاصة .

هذان هما الفنانان الشابان في بحثهما لتلقف شيء جديد مع مراعاة الفن الاصيل وارى ان « جوليو » بدأ يتضح ويفتح عالمه الداخلي ويكشف نظرياته الفنية بينما مايزال محمود يعاني من تجاربه النفسية الكثير . ويترك شخصيته الفنية لصدف الحياة النفسية وتعقيداتها . ومستقبل فنه موقوف على مستقبل الصراع الداخلي بين محمود الفنان الجريء ومحمود النفس الانسانية المتحركة .

دمشق — **عبد العزيز علون**

صدر حديثا :

رسائل مؤرقة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب